أم الوزّ

بقلم برهان الخطيب

قال الرجل الآخر :

ـ ما فائدة الحفر .. قبلك حفر الكثيرون ولا فائدة ؟

حافظ حفظل على صحته واستمر يحفر محدقا في التراب الاصفر العقيم . اضعاف الرجل الآخر :

ـ والحكومة بحكامها واحكامها عجزت فكيف بالمساكين عباد الله؟

غرس حنظل المسحاة في باطن الارض مداوما التحديق في التراب الاصفر العقيم واجاب بصوت يشبه حفيف سعف النخيل في الواحات الظليلة البعيدة :

ـ والرأي ؟ هل نلطم الخدود مثل النسوان ؟

اعقب الرجل الاخر بلهجة جادة وهو يقترب برأسه نحو حافة الحفرة اكثر من السابق :

ـ نعبر الحدود .. الى هناك .

وارسل الرجل الاخر بصره بعيدا ، عند حافة الافق . واضاف متنهدا :

ـ هناك كل شيء اخضر ...

ـ وعلى شفتيه البيضاوين شبح ابتسامة باهت وفتحتا عينيه تضيقان اكثر :

ـ كل شيء اخضر حتى عيون البنات .

ورفع حنظل رأسه فعكس وجهه الاسمر المتفضن الجاف رغم الجهد الشديد نور شمس واهنة آخذة في الغروب .

قال وفي عينيه عتمة القرب اليابسة :

ـ سنكون هناك يا رجل غرباء كاليتامى !

فقبض الرجل الاخر على حفنة من التراب المتراكم عند حافة الحفرة ثم فتح قبضته فتطاير مع الريح الهابة ذرات ذرات ، اجاب :

ـ لم يكن لاجدادنا مكان ثابت ونحن ولدنا متنقلين كذرات هذا التراب .

ففرس حنظل المسحاة في التراب الذي ما زال اصفر عقيما واستمر في الحفر قائلا :

ـ اذهب .. ولكنك اذا لم تمت في منتصف الطريق فلن تنجو من لصوص البادية .

فنهض الرجل وهو ينظر نحو الغروب الدامي وقال :

ـ الرحيل هو الخلاص . سيأكل الرجال بعضهم البعض ... امس كادوا يقتلون عامل المضخة .

وجاء صوت حنظل من الحفرة عنيدا يقوى كلما غرس المسحاة في باطن الارض :

ـ المهم ان تعرف الى اين الرحيل !..

وذهب الرجل صعدا على المنحدر الترابي ، وفي أعلى الرابية وقف الى جانب خيمة سوداء . نظر عبر الارض المنداحة على مدالبصر، وخفقت ريح ثقيلة جانب دشداشته الزرقاء الحائلة بفعل الشمس، ثم صاح كأن صوته يأتي من مكان ما ولكن ليس ذلك المرتفع الذي يقف عليه :

ـ يا حنظل لا تتعب نفسك ، الرجال ياكلون بعضهم البعض ولا حاصل .. ارى الفجيعة تركض الينا اسرع من الريح .

اخرج حنظل رأسه من الحفرة وصاح :

ـ يا اجرب يا ملعون ...

ولكنه كف عن الصياح عندما لمح في البعيد شبحا يركض متجها نحوهم .. وحملت الريح اليهم صوته كاستغاثة :

ـ مطر .. مطر .. مطر ..

هبط الرجل من المرتفع الترابي يكاد يسقط لتعثره باذيال دشداشته وقال وهو يتبين ملامح الشبح القادم متوقفا عند الحفرة:

ـ سبحان الله .. سبحانه .. مطر في هذا الصيف القائظ ... مطر في مثل هذا ... سبحانه ! .

وضحت صيحة الشيخ كاستغاثة حقيقية . فصرخ حنظل :

ـ سم ! سم ! ما القضية ؟ تركض كالمدوغ ؟

توقف امامهما صبي منفوش الشعر ، يرتدي دشداشة ممزقة لا لون لها ، تتلاحق انفاسه كالطارد ، قال الصبي :

ـ مات « المرياع » .

وقال الرجل ممسكا الصبي من ذراعه :

ـ اجننت كالاخرين .. ما قضية المطر ؟

ترك حنظل المسحاة ومد يده للرجل فتناولها وساعده على الخروج من الحفرة . جلس على اكوام التراب ، وارسل نظرة بين قدميه يحدق في اعماق التراب الاصفر العقيم ، كرر بصوته الشبيه بحفيف سعف النخيل في الواحات الظليلة البعيدة :

ـ مات المرياع !

قال الصبي باستسلام :

ـ مات .

قال حنظل :

ـ والقطيع ؟

اجاب الصبي :

ـ اخذ يتبع الحمار .

كرر حنظل ثانية :

ـ يتبع الحمـار !.

فرد الصبي من خلال انفاسه المتلاحقة :

ـ ولكن مطرا ركب الحمار .. وقال سآخذ القطيع الى هناك .. الى ام الوز .

همهم الرجل :

ـ جن الجميع !.

هز حنظل رأسه وقال ونظرته تنيه بيـن ذرات التراب الكثيـرة المتراكمة :

ـ اذكر المرياع عندما ولد قبل اعوام ، اخذته مـن امه ، وارضعته لبن الحمار ومذاك وهو يتبع الحمار اينما يذهب والقطيع يتبعه مـن ورائه .. كان مرياعا بحق ! قرونه كالخناجر وحجمه كالثور .

اضاف الصبي وانفاسه ما تزال تتلاحق ووجهه جاف كصخرة رغم الجري في الحر الشديد :

ـ مطر .. ركب الحمار وقال سآخذ القطيع الى الجنة !.

فنظر الرجل الاخر نحو السماء بخيبة وقال كمن يحدث نفسه :

ـ المطـر ..

حدجه الصبي وحنظل بنظرة متسائلة ، ثم اضاف الصبي فيمـا غرز حنظل قدمه السمراء العارية في ذلك التراب الاصفر العقيم :

ـ ولكن المطر لم يعد يسقط من السماء منذ زمن بعيد ..

وانتبه الرجل الآخر الى قرص الشمس الغارب وهو يلامس حافـة الافق الذي احمر كيوم دام ، وقال :

ـ والجنة ! اين هي الجنة التي يتصورها مطر ؟.. لقد جن ابنك فيما يبدو يا حنظل !.

رفع الصبي ذراعه واشار بيده نحو المشرق :

ـ يقول مطر .. هناك ام الوز ، الغدران واسعة كالبحور والطيور تحلق في اجوائها بلا عدد .

ـ كان ذلك في قديم الزمان .. ولكنها عندما جفت وقحلت تغرّب من تغرب ، تبعثرنا في بلاد الله الواسعة كما تتبعثر قبضة الرمل فـي الريح والعاقل الان من يسلم بنفسه .

فنظر اليه حنظل مرة اخرى وحافظ على صمته فيما هـو ينقـل نظرته نحو قرص الشمس الآخذ في الاختفاء وراء الافق .

* * *

ذابت الانوار في غسق رمادي كاب فوضحت نجيمات في سمـاء عقيمة لا تحبل بالسحب . وقال الصبي :

ـ تعبت من المشي .

فاعقب حنظل ونظرته تستطلع مشارف الخرائب التي اخذت تبـدو غائمة للعيان :

ـ كان الافضل لو بقيت تحفر هناك .

فاسرع الصبي خلف حنظل ورفع رأسه اليه وهو يسأل :

ـ اصحيح ما يقوله مطر عن ام الوز ؟.

صمت حنظل ولم يجب ، قال بحسرة :

ـ لماذا تركتم المرياع يموت ؟.

رد الصبي لاهثا متسارع الخطوات :

ـ نفد كل شيء . ويقول الرجال فـي المضخة سنموت جميعا اذا لم تصل سيارة الحكومة هذه الليلة .

وتساءل حنظل بذات اللهجة المتحسرة :

ـ وبقية القطعان كيف حالها ؟.

قال الصبي من خلال لهاثه :

ـ مات الكثير من الخراف قبل اللحاق لذبحها .

فالتفت حنظل نحوه واستفسر متخوفا :

ـ وقطيعنـا ؟.

سعل الصبي مجيبا وهو يكاد يسقط من الاعياء :

ـ المرياع فقط .. اراد ان يبقر بطن الحمار قبل موته !.

ومرت فترة صمت قاحلة كالارض التي يمشون عليها وكالسماء التي يدبون تحتها ، وامامهما تناثرت اشباح خرائب لا حدود لهـا مطموسة المعالم في ظلمة كدرة تخفي الكثير من المخاوف والاوهام ، وبـدا كـل شيء صامتا ينذر بفجيعة ، سأل حنظل :

ـ ماذا ترى هناك .. يكاد العمش يعمي عيوني ؟

قال الصبي :

ـ الخبال مس الجميع ، والخراف اكلت حتى الاعشاب السامة .

تناثرت امامهما في الظلمة نقط سوداء حالكة كثيرة ، وبدا حشد من الرجال يتجمع حول مكان يرتفع منه عمود طويل . والـى جانبهما استطاع حنظل والصبي ان يميزا تلك النقط السوداء الحالكة فوضحت معالمها وبرزت جثث بعض الخراف ملقاة كانها مستلقية فـي اغفـاءة طويلة .

همهم حنظل :

ـ يا ساتر .. اين تركت مطرا والقطيع ؟.

اشار الصبي نحو الحشد :

ـ انه هناك في وسطهم ، منذ المغرب وهو يتصايح معهم .

واسرع حنظل في خطوه فتبعه الصبي وهو يجرجر ساقيه علـى الارض المجدبة . وحولهم في كل مكان كان الغبار القاتم الاسود يتصاعد نحو السماء كانما يهرب من الارض ، وكانت قطعان الخراف تزحف مـن كل صوب لتلتقي في نقطة واحدة حيث يجتمع الرجال حـول العمـود المرتفع في دعاء ضارع متوسل ، مئـات الخراف تزحف كانها في هجوم وحشي مخيف نحو نقطة واحدة ... المضخة !.

صاح مطر قرب عمود المضخة :

ـ يا ناس .. يا عالم .. الا تفهمون .. هناك .. هناك ام الـوز ستجدون كل شيء اخضر . غدران واسعة كالبحار ، طيور لا حصر لهـا ولا عدد ، ارض معشبة للجميع .. الا تصدقون ؟!.

وارتفعت صيحة اخرى اكثر حدة :

ـ يكفي .. غدرانك سراب سنموت قبل الوصول اليها .

وتحرك الحشد عندما حشر حنظل نفسه بين الرجال وتبعه الصبي متشبثا بدشداشته ، فظهر لهما مطر فتيا كينبوع في عز الظهيرة .

قال مطر بصوت متعب :

ـ صدقوني .. مررت بها .. رأيتها بعينـي ، رعت فيها اغنامي ، .. ام الوز .. فيها الغدران واسعة ، الاعشاب نامية ..

فقاطعه صوت آمر لا مبالي :

ـ اذهب وحدك اذن وكف عنا .

وساد صمت ..

هبط الليل على الجميع . وهبت ريح باردة .. لا جدوى من الكلام عندما يعجز عن خلق المعجـزة ، والشفـاه المتيبسة تبيض كالسراب والالسن الخشنة تجف كظهور الظباء الكثيرة الموزعة حولهم في كـل مكان ، ولم يضف الرجال شيئا ، قال مطر :

ـ لا تريدون الذهاب ولا تفعلون شيئا في البقاء ، هـذا هو هلاككم الحقيقي .

ولما حافظ الرجال على صمت متوتر يضمر الكثير مـن المخاوف والتهديدات اضاف مطر ونظرته تعبر الرؤوس المحتشدة نحو الليل وهواء البادية الهاب دائما تجاه ام الوز ذلك المكان الرطيب المعشوشب :

ـ من يرى ام الوز سيحلم بها ابدا ، ولا راحة الا فـي الذهاب اليها . سأذهب وحدي ولكنكم تخسرون .

واعترض احد الشيوخ قائلا :

ـ تعقل يا ولدي فاللصوص والمهربون يملأون البادية .

وتنحنح حنظل وتدخل في الحديث لاول مرة منذ وصوله محطـة الضخ فاضاف بصوته المجهد وهو ينظر نحو الجميع معاتبا :

ـ لمطر الحق عندما يفكر بالذهاب فانتم لا تفعلون شيئا الا الانتظار

استنفدتم كل ما خزنتموه حتى تيبست الجلود وهـــا انتم لا تبارحون المضخة كأنها ستتنفس من جديد بصلواتكم .

فعلق اعرابي يجلس على قاعدة الخزان بصوت منهك :

ـ ارسلنا احد الرجال الى المدينة للاخبار ولكنه لـــم يعد ولـــم تحضر السيارة فماذا نفعل ؟.

واشار حنظل بيده تجاه المضارب واجاب بلهجة مهينة :

ـ هذه الارض امامكم .. احفروا فيها ، انبشوها نبشا !.

وحافظ الرجال على صمتهم الغامض وسط الليل فاعقب الاعرابي ثانية بيأس :

ـ لا حاصل حتى لو نحفر عشر قامات .

اجاب حنظل بلهجة قانعة ، هازا رأسه :

ـ لنحفر اكثر .. القضية حياتنا .

ولكن مطرا الواقف الى جانب عمود المضخة المتوجهة نحـو السماء قال بصوت انتشر مع الريح معتزما الذهاب :

ـ لا فائدة ، فارضكم جفت والخير كل الخير هناك في ام الوز . سآتيكم يوما بعشبها لتصدقوا .

فرفع حنظل صوته المجهد وقال :

ـ لا تذهب يا مطر .. فالحفر هو الرجاء .

ولكن الريح تبعت مطرا وهو يبتعد عن الحشد وتساوقت الاغنـام خلف حماره وسط الليل .

* * *

وفي الغبش ، لاح طيف احد الخراف يخطر في خط الافق امـام المضارب . توقف الخروف والتفت ناحيـــة الخيام السوداء الصامتـة للحظات ، ثم تحرك تجاهها بصمت هو الآخر . ولم يخطر اكثر من اربع خطوات حتى توقف ثانية ولوى رأسه نحو الافق الفضي كأنـه يخفـــى امرا ما . تساءل حنظل وهو يجاهد ليفتـــح عينيه ليرى تلك النقطـــة السوداء التي خوضت في حلمه الابيض :

ـ ماذا ترون هناك .. عند حافة الافق ؟.

فاجاب رجل طويل يرتدي دشداشة بيضاء حائلة خرج على التو من الخيمة القريبة ، وكان اثر النعاس واضحا في نظرته الخابية وصوتـــه الناحل من قلة الاستعمال :

ـ ماذا ارى ؟.. ارى خروفا آخر يجرجر نفسه هناك .

وصاح الصبي اسفل الحفرة بصوت كامد عميق :

ـ اكاد اموت .. سأنام في القاع .

ولم يعبأ حنظل لاستغاثة الصبي ، حاول ان يباعـــد جفونه اكثـر ما يستطيع ليرى ماذا يجري هناك .. وقال وهو ينهض مـــن اضطجاعه على اكوام التراب :

ـ ولكن ما الذي دفع به الى خيامنا .. لعله ..

وصمت حنظل مداوما النظر نحو تلك النقطة السوداء التي كدرت صفاء الفجر الفضي ، فاعتب الرجل الطويـــل ذو الدشداشة البيضاء الحائلة بنكد :

ـ لعله لعنة .. صلاة بلا توضؤ ! من يقبل هذا ؟.

وتوجه الى ما وراء الخيام وهـو يرفع دشداشته مـــن الخلف . وتراقصت هناك امام الافق تلك النقطة السوداء فرفـــع حنظل صوتـه المتعب :

ـ اخرج الان واذهب الى هناك لترى ما الذي يجري ..

فصاح الصبي اسفل الحفرة :

ـ ما الذي يجري ؟

قال حنظل :

ـ لا ادري ..

وتحركت النقطة السوداء امام الافق بلا اتجاه معين . وظهر رأس الصبي من الحفرة وهو يتشبث بالحبل الملتف خارج الحفرة حول وتـد خشبي كبير مثبت في الارض ، وقال بصوت منهك وهو يخرج من جيب دشداشته الجانبي الطويل حفنة تراب :

ـ بارد الان .. بارد !.

وضعه في يد حنظل الجافة السمراء ورأى هناك الخروف الشارد يجرجر نفسه بين الاعشاب البرية اليابسة ويشمشم الارض بيـــن آن وآخر . قال الصبي بلهجة واثقة :

ـ انه من قطيعنا !.

وركض نحوه وصوت حنظل يتلاشى خلفه بين اكوام التراب حـول الحفـرة :

ـ .. ولكن القطيع ذهب مع مطر الى حيث لا يعلم الا الله ..

ولم يطل جري الصبي فصاح من هناك وهو يمسك بيـــده اليـــة الخروف :

ـ اخضر ..

وقال شيئا آخر لم يستطع حنظل ان يسمعه .

عاد الصبي الى حنظل راكضا وقال خلال لهاثه :

ـ اخضر العلامة ، من قطيعنا !.

وتساقط التراب خلال اصابع حنظل . وقام ونظرته كأنما تتوجـه الى ما وراء الافق لتستطلع الغيب . قال :

ـ دعهم يسرجون الخيول الثلاثة .

ولم يتأخر الصبي . ذهب الى الخيام ونام قرب صندوق مفضض بعد ان اخبرهم ، وجاءت ثلاثة خيول يصطحبها اعرابيان قال احدهما :

ـ ما الذي دهاك حتى تترك مطرا يفعل هكذا !.

ولم يجب حنظل . ركب حصانه ، واتجهوا جميعا نحـو المضخة . حول المضخة والخزانات كانت الحفر التـــي خلفتها الغدران الصغيـرة القديمة جافة تماما وكانت طيور الشهيبي الغبراء تجثم عـــلى سطوح الخزانات وتحدق في تلك الحفر بعيون زجاجية لا اثـــر للحياة فيها . قال حنظل وصوته يتكسر مع اهتزاز الحصان من تحته مشيرا ناحيـــة الشرق حيث كان الافق ما يزال اغبث بلون الفرات النيساني :

ـ الى هناك ..

وكانت الآثار التي تركها القطيع في الليل ما زالت تتوالى الـــى حيث لا يعلم احد .. قال مطر .. هناك ام الوز حيث الغدران زرقـــاء كصفحة السماء . وقال آخرون .. مجنون يريد اخذنا الـــى الهلاك ، ولكن ان يعود خروف من القطيع فذلك ما لا يعرفه مطـــر ولا يعرفـــه الآخرون ، وآثار القطيع تمتد .. تمتد .. تمتد .. الى حيث لا يعلـــم احـــد ..

وقال حنظل كأنما يلقي السؤال على نفسه :

ـ لماذا عاد الخروف لوحده ؟!.

وصمت الاخران . وتحسس احدهما الخنجر فـــي حزامه وهـــو يسوي مكانه جيدا على خصره . وعلق الآخر :

ـ لا شيء هناك سوى متاهات البادية وحرس الحدود .

صدر حديثا

ملاحظات علـــى
الموسوعة العربية الميسرة

تأليف
الدكتور علي جواد الطاهر

مطبعة الارشاد ـ بغداد

واستمرت الخيول في لهاثها المتعب .. واضاف حنظل مرة ثانية لكأنما يطرد هاجسا :

ـ ذرعنا البادية شبرا شبرا ولكننا ابتعدنا عن الحدود دائما فلماذا يا مطر تجلب لنا المتاعب دائما ؟

وامامهم في الشرق اختلطت الارض بالسماء . وكان أفق مضبب يحجب ميلاد شمس باهرة واشياء اخرى كثيرة . واشار احد الاعرابيين صحبة حنظل الى موضع بعيد اخذ يحمر متمخضا عن ميلاد فجر يوم جديد ، وقال بصوته البعيد بعد المسافات في البادية :

ـ تتجه آثارهم الى هناك .. ما كان ينبغي ان تتركوا مطرا لوحده.

وعلق الآخر :

ـ لنعد يا اخوان قبل ان تحرفنا الشمس .. خيامنا اصبحت بعيدة .

الا ان حنظل كان صامتا وكرر :

ـ ذرعنا البادية كلها ولكننا ابتعدنا عن الحدود دائما فلماذا يا مطر ..

وقال احد الاعرابيين وقد تخضل الافق امامهم باحمراره الدموي :

ـ ربما عبر الحدود مع القطيع ، وربما باعه الى احدهم وربما وربما لا احد يدري ..

واضاف الآخر مضيقا فتحتي عينيه :

ـ الا ترون يا جماعة ماذا هناك .. انها ليست ارضنا ، ربما نحن عبرنا الحدود والافضل العودة بلا متاعب !.

وقال حنظل ايضا :

ـ ماذا هناك يا جماعة ؟.

وتطلعوا ثلاثتهم حيث كان الافق ، يحتضن اشكالا غريبة على تموجات البادية . وتسابقت الخيول شيئا فشيئا فيما بينها .. مرت الريح على وجوههم باردة منعشة تحمل رطوبة توقظ في النفس الرغبة للتمرغ في الغدران والتفيؤ في الواحات ، وقليل من الاشعة الحمراء ارتمت على الاديم المترامي بلا حدود . ولاحت امامهم بعيدا انعكاسات فضية كأن الفجر يتدفق منها ، فقال احدهم مضيقا فتحتي عينيه :

ـ لا داعي للتسابق فهو السراب ..

ولكن الخيول كانت تتسارع وما كانت الانعكاسات الفضية لتبتعد كانت تقترب وتزداد سطوعا والقا لكأنها بحار تنداح على مد البصر .. وتسارعت الخيول . وقال حنظل بلهفة :

ـ انه ليس السراب !.

لم يكن ثمة سراب ، وفي السماء تتحرك نقاط سوداء كثيرة ، سارحة بهدوء ، كانت طيورا .. وامامهم كانت غدران واسعة تتصل بالسماء لكأنها حلم أو وهم من الاوهام . والخيول تتسارع اليها تطير مهومة في الهواء .

وجوههم باردة تسفعها ريح الفجر الا ان عيونهم حارة مالحة .

وتراقصت امامهم على الضفاف اعشاب خضراء كصبغة الجوهر التي تلون أليات القطيع ، ولكن لم يكن ثمة خراف !. لم يكن سوى آثار مبعثرة هنا وهناك كأنها خربشات معركة . والهدوء الشامل لا يكدره الا نعيق بعض الغربان المتطايرة فوق شيء ما ملقى على الضفة .

وجر الرجال الثلاثة أعنة خيولهم فتباطأت وتوقفت تحجل لهثها . ولم يستطع حنظل الا ان يهمهم :

ـ ام الوز !! .

زنخرت خيولهم وتمردت وهي تشم رائحة نفاذة غريبة . وغمغم احدهم متخوفا وهو يشير بيده نحو ذلك الشيء الممدد تحت تشكيلة الغربان الناعقة :

ـ ولكن .. هناك .. جثة فيما اعتقد !

فتقدموا بخيولهم نحوها ببطء ..

موسكو

برهان الخطيب

الشوارع العارية

رواية تأليف

فاسكو براتوليني

ترجمة ادوار الخراط

صدرت حديثا

بدر شاكر السياب

قصائد

اختارها وقدم لها

أدونيس

طبعة ثانية

صدرت حديثا

منشورات دار الآداب ـ بيروت ـ ص . ب ٤١٢٣